تجربة محمد على فى كتابات الجبرتى

د. محمد صابر عرب

الجبرتى بين عصرين

يمكن القول بأن الجبرتى ينتمى ثقافياً إلى القرن الثامن عشر ولعل ركاكة أسلوبه وأخطائه التعبيرية والنحوية فى أحيان كثيرة تؤكد تدهور أحوال مصر علمياً وثقافياً فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إضافة إلى أن كثيراً من الخرافات التى أبرزها الجبرتى باعتبارها من بين قناعاته قد شغلت حيزاً كبيراً فى تفكيره. واللافت للنظر أن نهاية القرن الثامن عشر وما واكبه من أحداث وما لاحقه من تحولات يعد مفترق طرق كما عبر عن ذلك المرحوم شفيق غربال[1].

لعل من الصعب أن نضع حداً فاصلاً بين الجبرتى بثقافة القرن الثامن عشر من جانب وانتماءاته الطائفية باعتباره واحداً من طبقة تميزت اقتصادياً واجتماعياً على الرغم من تجاوزات المماليك والعثمانيين إلا أن علماء الأزهر بقوا بعيداً عن التقلبات التى نالت كثيرا من طوائف المجتمع خلال تلك الفترة.

وتبدو أهمية ما كتبه الجبرتى وخصوصاً عن الثلاثة عقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، حيث يأتى كتاب الجبرتى الشهير "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" باعتباره المصدر الوحيد الذى يتناول باستفاضة لا تخلو من روح الجبرتى وثقافته فترة تعد بحث "مفترق طرق" عن عصر كان ينذر بالانتهاء ولم يستطع الجبرتى أن يُجمل الصورة، التى كانت أشد قسوة من أى فترة تاريخية أخرى فى العصر العثمانى.

لقد كانت مصر قبيل مقدم الفرنسيين قد اصابها التدهور بسبب المظالم لدرجة كما يعبر عن ذلك الجبرتى: "تتابعت المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة حتى ملأوا الأسواق والأزقة يبكون ويصيحون ليلاً ونهار من الجوع"[2].

لقد أخفقت الزعامات التقليدية فى القبض على زمام الأمور وما نجم عن ذلك من ظهور عصبيات مملوكية مستغلة أحوال الجند العثمانيين، لذا فقد النظام مقوماً أساسياً من مقومات توازنته ناهيك عن فقد شرعية بقائه.

لعل الطبقة التى عبر عنها الجبرتى (علماء الأزهر) والتى كان الجبرتى واحداً منها لم يلحقها ضرر يُذكر بل كانت فى أصعب الظروف قادرة على الحفاظ على هيبتها وبينما أكل الفقراء الحيوانات الميتة، حيث راحوا يتزاحمون عليها لدرجة أكلها نيئة ووصل الأمر لدرجة أكل الموتى(٣).

ويشير الجبرتى معبراً عن معنى لا يخفى على لبيب قائلاً: "لقد شحت النفوس واحتجب المساتير" لعل هؤلاء المساتير كانوا هم الفئة الوحيدة القادرة على الحفاظ على مكاسبها من بين مخالب المماليك الذين تجاسروا مرة أخرى على النيل من حصة الشيخ الشرقاوى بناحية بلبيس وحضر الأهالى يشكون محمد بيك الألفى وذكروا أن اتباعه فرضوا على القرية ما لا طاقة لهم به واستطاع الشيخ الشرقاوى ان يجمع المشايخ، الذين أغلقوا أبواب الأزهر بعد أن خاطبوا مراد وإبراهيم بك محذرانهما من مغبة تجاوزات المماليك على حقوق علماء الأزهر وراحت العامة تلتف حول المشايخ مما أخاف المماليك لدرجة أن مراد بك اعترف بتجاوزات جنده وأعاد حقوق الشيخ الشرقاوى بعد أن تعهد بعدم العودة إلى ذلك ثانية(٥).

لقد كان الجبرتى واحدا من طبقة أتاح لها العصر العثمانى قدرا كبيرا من التميز، فلم تكن ثمة طبقة أخرى تتمتع بما يتمتع به علماء الأزهر من مميزات، حيث كان النظام يستمد مشروعيته من مساندة شيوخ الأزهر باعتبارهم علماء الإسلام مما أتاح لهم مكانة خاصة وسط عامة الناس لدرجة أن الولاة كانوا يحرصون على أخذ رأيهم فى معظم القضايا الكبيرة بما فى ذلك مشاكل الزعامات المحلية التى استقلت تماما بالأقاليم التى استحوذوا عليها واستعصوا على السلطة المركزية، التى راحت تستحث شيوخ الأزهر على مساندتها فى مهمتها ولعب

بعضهم دور الوساطة سواء فى إبرام صلح أو المساومة على زيادة المبالغ المستحقة على بعضهم(٦).

يمكن القول أن مصر فى نهاية القرن الثامن عشر قد فقدت أهم مقوم من مقومات قوتها، حيث لم تعد سلطة الوالى تتجاوز العاصمة وأصبحت الأقاليم تئن من مظالم الأمراء وشيوخ العربان الذين استقلوا بأقاليمهم وراحوا فى أحيان كثيرة يشنون حملات على القاهرة استهدفت سبى النساء وسرقة الأموال والانتقام احياناً من زعماء المماليك والعثمانيين.

لقد كان أمراء المماليك والعثمانيون وشيوخ الأزهر فى طليعة المجتمع، حيث اتخذوا لأنفسهم أعوانا ومارسوا الحبس والتعذير والضرب واستخدموا كتبة الاقباط وحازوا الأراضى الشاسعة إضافة إلى حصول المشايخ على رعاية وعطايا كبار المماليك.

بهذا الوضع أصبح كبار علماء الأزهر جزءا من السلطة المملوكية ثم أن تفتت الدولة والصراعات بين الأمراء جعلهم جميعا فى حاجة إلى دعم جماهيرى ودينى لذا فقد ضاعفوا من هداياتهم إلى العلماء، الذين تضاعفت ثرواتهم وازداد نفوذهم. لقد كان الجبرتى نفسه (عبد الرحمن) واحدا من هؤلاء مما ضاعف من ارتباطه بكبار المماليك كمحمد الألفى وإبراهيم بك، وهكذا ارتفعت مكانته الاجتماعية لتقترب من مصاف الحكام المماليك وعلى حد تعبير أحد الباحثين : "لقد تحول المشايخ إلى شريحة فاعلة فى النشاط الاقتصادى للمجتمع المملوكى(٧).

لعل من الصعب الحكم على ولاء الجبرتى إلا من خلال مكانته الاجتماعية من جانب وعلاقته بالهيئة الحاكمة وقتئذ من جانب آخر أما مفهوم الدولة وحقوق الرعية ومفهوم المواطنة الخ فهى قضايا لم تكن موضع تفكير الجبرتى الذى لم تتجاوز

نظرته للمصرى ابن البلد أكثر من كونه "جعيدية" و "ذعر" و "حرافيش" و "أوباش" لذا فهو لم ينظر لثورة الشعب المصرى ضد الفرنسسين الا من زاوية أنها "أوقعت الكروب والشتات والهياج وخراب الدور وعظائم الأمور وقتل الرجال ونهب الأموال وتسلط الأشرار الخ[٨].

لقد كان الجبرتى منتمياً ثقافياً واجتماعياً إلى عصر يرى أن الفلاح المصرى شخصية قبيحة ، خائن، جاهل، أحمق إلخ والثورة من وجهة نظره عمل عدوانى لا يقوم بها إلا الرعاع الذين لا يملكون مسكناً أو مالاً أو أرضاً.

من الطبيعى أن يساند الرجل كل سلطة تدعم وتحافظ على حقوق طائفته، تلك المكاسب التى لم تمتد إليها أيدى المماليك، لذا فهو مع سياستهم ناقما على كل من يحاول التقليل من هيبتهم ومكانتهم حتى ولو كان ذلك على حساب المصريين الذين لم يعبر عنهم الجبرتى إلا من زاوية "الرعاع" و "الذعر" و"الحرافيش". واللافت للنظر أن الجبرتى كثيرا ما تناول المماليك باعتبارهم مواطنيين مصريين، حيث سكنوا البيوت التى تملكوها وارتبطوا بمصالح وارزاق لم تنقطع مما يؤهلهم من وجهة نظر الجبرتى لكى يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى.

لقد عبر الرجل عن عدم رضاه عن أى تغيير قد يطيح بحقوقه وحقوق طائفته، لذا فهو ضد الثورات، التى اعتبرها "فتنة" لا يقوم بها الا "الدهماء" والشيخ سليمان الجوسقى (شيخ العميان) الذى تزعم ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين واعدم بسببها رجل يحب "التفاخر" لذا استحق المصير الذى آل إليه[٩].

لعل الأحداث التى عاصرها الجبرتى وخصوصا عندما أتيح له أن يقترب من الفرنسيين قد أتاحت له أن يقارن بين همجية المماليك الذين يدعون الإسلام وقتلهم الأنفس وبين الفرنسيين الذين اتاحوا لسليمان الحلبى كل ضمانات الدفاع من خلال محاكمة اعتبرها الجبرتى عادلة، لذا فقد ابدى اعجابه بالفرنسيين بينما هو كاره

للإنجليز ، لكن لا بأس من أن يبدى إعجابه بهم وخصوصا بعد أن اقترب صديقه الألفى منهم، حيث تهذبت أخلاقه بعد أن عايشهم ويرجع ذلك إلى عدلهم فى رعيتهم: يمكن القول أن الرجل قد تأثر كثيرا بسبب الأحداث الكبيرة التى واجهتها مصر مع بداية القرن التاسع عشر، حيث اتيحت له مجالات أوسع للمشاهدة والمقارنة ولعله قد وضع يده على عوامل التخلف التى آل إليها المجتمع المصرى مما جعله يعيد التفكير فى كثير من المسلمات، لذا راح ينتقد البدع والخرافات.

وحينما تتعارض مصالحه مع الإجراءات التى اتخذها محمد على بهدف إضعاف الفئات التى أعاقت مهمة الحكومة المركزية يواصل الجبرتى هجومه على الرجل متهما إياه بالحقد والحسد حيث اعتدى "على مساتيرالناس" لذا راح يؤكد على المصير الذى آل إليه عمر مكرم معتبرا ذلك عقابا سماويا بسبب دوره فى تولية ظالم، لذا استحق ذلك العقاب.

تحمل كتابات الجبرتى كثيرا من الصور التى تبرز ملامح الحياة الاجتماعية من العصر العثمانى متضمنة قدرا من التفاخر والعظمة التى اعتبرها الجبرتى دليلا على هيبة المجتمع وقوته. من الطبيعى أن يستنكر الجبرتى اية إجراءات تتعارض مع مصالحه ومصالح طائفته التى كانت تقوم بشراء حصص الإلتزام، أقل من القيمة وفقا لرواية الجبرتى وأن الحديث عن الميرى والفائظ والمرافعات والمراسلات كان من أهم ما عنى به علماء الأزهر فى مجالسهم الخاصة[١٠]. وكان والد الجبرتى نفسه يمارس التجارة والبيع والمضاربة والمقايضة وتملك العقارات ناهيك عن الالتزام والوقف.

لعل الخلل الذى آل إليه المجتمع وقتئذ قد ضاعف من مكانة علماء الأزهر، الذين التفت العامة من حولهم طامحين فى تدخلهم لمنع تجاوزات المماليك وهو ما كان يحدث فى أحيان كثيرة إلا أن محصلة هذا كله تبؤ العلماء مكانة اجتماعية يرى

الجبرتى أنها قد اهتزت كثيرا مع بداية القرن التاسع عشر ثم راحت تتدهور بشكل ملحوظ مع الإجراءات الصارمة التى اتخذها محمد على والتى استهدفت كل القوى لصالح مركزية الدولة من خلال مشروع كبير لم يقدر للجبرتى أن يرى ثماره.

تجربة محمد على فى كتابات الجبرتى...

من الصعب الفصل بين الجبرتى كأحد المنتمين إلى طبقة علماء الأزهر وبين الجبرتى المؤرخ فالرجل شديد النقمة على المماليك وعساكرهم بسبب تجاوزاتهم التى ارهقت العامة واحالت البلاد إلى حالة من حالات الفوضى بينما هو متعاطف معهم فى أحيان أخرى وهو شديد النقمة على محمد على الذى كسر شوكتهم وشتت شملهم.

واللافت للنظر أن الجبرتى كان ينظر إلى المماليك أحيانا باعتبارهم من المصريين وخصوصا فى صراعم مع محمد على، حيث سكنوا وتعايشوا وسط المصريين واكتسبوا كثيرا من عادات وثقافة المصريين. لم يكن الجبرتى أحد الذين التفوا حول محمد على ولم يكن من بين رجالاته إلا أنه راح يستقى معلوماته من مصادر عدة، حيث أخذ يسجل الواقع باحداثه المتلاحقة.

لقد شهدت مصر منذ انتهاء حكم على بك الكبير، حتى مجئ الحملة الفرنسية فترة من أشد الفترات التى مرت بمصر، عبر عنها الجبرتى بقدر من السخرية، التى لا تخلو من روح الجبرتى حيث اضطرب الأمن وعمت الفوضى وراح العسكر والعربان يمارسون نشاطهم المعهود من السرقة وفرض الاتاوات ووصل الأمر لدرجة سبى النساء والاطفال.

لعل ما كتبه الجبرتى عن هذه الفترة يعد نقطة تحول لعصر كان ينذر بالانتهاء وبداية عصر جديد اعتمد فى سياساته على المركزية الشديدة وفى سبيل ذلك استباحت السلطة الجديدة كل ما من شأنه أن يدعم نفوذها ابتداء من الضرائب التى

تجاوزت الحد المعقول وانتهاء بالقسوة الشديدة التى عامل بها النظام خصومه.

لقد كان الجبرتى وهو يسجل للأحداث التى مهدت لمجئ محمد على كان موضوعيا معبرا عن الواقع بكل تناقضاته، حيث استحالت الحياة فى ظل نظام فقد كل مقومات وجوده ورعاياه.

لعل أهم ما أدركه الجبرتى بحسه التاريخى أن محمد على كان وراء كثير من الأحداث التى عجلت بوضع نهاية لخورشيد باشا وأن دهاءه ومكره ومقدرته على كسب ود علماء الأزهر كل ذلك قد أدغر صدر الوالى العثمانى الذى بذل جهدا فى إثناء العلماء عن موقفهم. إلا أن طموح محمد على ودهاءه قد افسد كل محاولات خورشيد باشا(١١).

لقد أبدى الوالى قدرا من المرونة كوسيلة لتضييع الفرصة على محمد على وفى سبيل ذلك أخذ يتودد للعلماء مؤكدا وضع حد لتجاوزات العسكر، الذين أحالوا القاهرة إلى فوضى عارمة واقتراح اشراكهم فى البحث عن حل إلا أنهم رفضوا، بإيعاز من محمد على الصعود إلى القلعة، حيث أشيع أن خورشيد يدبر لاغتيالهم وهم فى الطريق ويعلق الجبرتى بسخريته المعهودة قائلا: "ومن السهل اتهام الأوباش العسكر"(١٢).

وفى سبيل اتساع الخلاف بين الوالى والعلماء فمن الممكن أن نتصور أن محمد على وراء مثل هذه الشائعة . لقد تعرض الجبرتى لقضية اعتقد بشرعيتها لما لها من أهمية، حيث وجدت قبولا عند عامة العلماء وكثير من القناصل وكبار التجار الذين ذهبوا إلى بيت القاضى واجمعوا على أعمال شرع الله فى هذا الباشا"الظالم"(١٣) وطالبوا القاضى بعقد مجلس الشرع وكتبت وثيقة أشبه بوثيقة اتهام ضد الباشا تضمنت تعدى العسكر والمظالم والفرد وقبض مال المرى المعجل

ومصادرة الناس بالدعاوى إلخ(١٤).

لعل الوصول بالقضية إلى هذا الحد قد أدى إلى موقف يعد جديدا، حيث تفجرت العديد من القضايا التى لا عهد للمصريين بها ولقد حاول الباشا اقناع عمر مكرم بأن عزل حاكم عينه السلطان مسألة لا تدخل فى نطاق سلطة الشعب وحقوقه، كما أنها تتعارض مع مبادئ الشرع الحنيف حيث جاء فى القرآن الكريم "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم". إلا أن حجة الفريق الذى تزعمه السيد عمر مكرم لم يأخذ بعموم النص مطلقا وإنما اعتبر أن المقصود بأولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل الذى يسهر على تنفيذ أحكام الشريعة وراح الشيخ عمر مكرم يقدم من الحجج ما يقيم دليلا صحيحا على موقف جماعته، حيث جرى العرف على أن يخضع لكلمة الشعب الأمراء بما فى ذلك الخلفاء والسلاطين إذا ثبت أنهم لا يستحقون شرف (الحكومة) على رعاياهم وفى استطاعة الشعب عزلهم واستبدال غيرهم. ولما كان خورشيد يعد طاغية، مستبدا، ظالما، لذا فقد وجب عزلة بمعرفة الشعب(١٥). حقيقة لقد أبدع الجبرتى عندما تعرض للإجراءات التى أدت إلى عزل خورشيد وتنصيب محمد على ويبدو أن الرجل قد انتابه قدر من الضيق سواء بسبب زعماء المماليك أو الجند العثمانيين أو حتى الوالى نفسه، لذا فإن حرص الجبرتى على أن يقدم وثيقة ناطقة معتمدة على حجة شرعية صاغها القاضى بإجماع شيوخ الأزهر، مستمدة حكمها من القرآن والسنة كما قال بذلك عمر مكرم يعد دليلا على موافقة الجبرتى على عزل خورشيد وتنصيب محمد على ومما يلفت النظر دقة الجبرتى فى عرض تفاصيل الصراع بين أنصار خورشيد واهتمامه بتفصيلات يصعب العناية بها إلا إذا كان الجبرتى نفسه واحدا من الذين شاركوا فى كل هذه الاجتماعات والمناقشات وإن لم يشر إلى ذلك صراحة فى كل ما كتب.

إذا كان من الصعب معرفة موقف الجبرتى من تعيين محمد على واليا إلا أن تناوله للقضية برمتها وعرضه لوجهتى نظر الطرفين كل ذلك يقدم دليلا على أن

الجبرتى كان قد ضاق بحالة الفوضى التى آلت إليها البلاد والتى انعكست على كل تفاصيل الحياة، حيث أصبحت الأمور تنذر بالوصول إلى مساتير الناس، الذين لم يكن قد أصابهم ضرر يذكر حتى هذه الفترة.

اللافت للنظر أن كلا من الطرفين قد أخذ يبحث فى مصادر الشريعة ما يقيمه دليلا على صحة موقفه فالعلماء يقولون بعزل الوالى الظالم اعتمادا على رأى كثير من فقهاء المذاهب الإسلامية والوالى يعتصم بحق السلطان فى اختيار ولاته اعتمادا على الشريعة أيضا. وعلى الرغم من أن الجبرتى كواحد من علماء الأزهر فلم يحسم القضية مع بيان رأيه الشخصى إلا أنه عندما تعرض للإجراءات التى أدت إلى عزل خورشيد وتنصيب محمد على ويبدو أن الرجل قد شعر كغيره من المصريين بقدر كبير من الضيق سواء بسبب الفوضى التى أحدثها المماليك أو بسبب تجاوزات العسكر أو حتى الوالى الذى عجز عن وضع حد لحالة الفوضى التى عمت البلاد.

لقد حرص الجبرتى على أن يقدم وثيقة ناطقة معتمدة على حجة شرعية صاغها القاضى بإجماع أهل الحل والعقد، مستمدة حكمها من القرآن والسنة مما يعد دليلا على موافقة الجبرتى على عزل خورشيد وتنصيب محمد على وتبدو دقة الجبرتى فى عرض تفاصيل الصراع بين أنصار محمد على وأنصار خورشيد.

من المؤكد أن الجبرتى قد استبشر كغيره من المصريين بمجئ محمد على وتمنى لو تمكن من وضع حد لحالة الفوضى العامة، التى راحت تنذر بالنيل من كل فئات المجتمع. لقد استحالت الحياة وفقدت السلطة كل هيبتها ولم تعد سلطة الوالى تتجاوز فى أحيان كثيرة حدود القلعة التى اعتصم بها معتمدا على مجموعات من العسكر لا يقومون بدورهم فى حراسة الوالى إلا بقدر ما يستجيب لمطالبهم التى فاقت كل حد.

لقد أدرك محمد على منذ الوهلة الأولى ، عقب تنصيبه واليا أن مصر تختلف كثيرا عن بقية الولايات التابعة للدولة العثمانية، وعلى الرغم من تدهور أحوالها إلا أن ذلك لا يحول دون حكمها بطريقة تختلف كثيرا عما كان عليه الحال خلال القرون الثلاثة الماضية وأن التخلص من كل القوى سواء التى ناصرته أو التى وقفت بجانب خورشيد هى البداية العملية للانفراد بالحكم بعيدا عن سلطة المماليك التقليدية أو نفوذ العلماء ومن الصعب أن يحقق طموحاته بينما هذه القوى التقليدية باقية.

لقد كان لدى محمد على الكثير من الافكار التى تنهض بمصر وتخلق منه حاكما كبيرا ولعلها كانت معادلة صعبة بحكم أن موارد الدولة وقتئذ لا تفى بطموحاته وأن أية إجراءات بالضرورة سوف تصطدم بما قطعه على نفسه من عهد أوجزه الجبرتى فى إنهاء مفاسد الجند ووضع حد للمظالم وإعادة الأمن والهدوء إلى البلاد إلا أن الفرنسيين الذين كانوا يرقبون أحداث القاهرة قد سجلوا ما قطعه محمد على على نفسه من شروط تلقاها "جون ستيوارت" من مصادرة فى القاهرة والتى جاءت على النحو التالى :

١- عدم مرابطة أية قوات فى القاهرة وانتقال الحامية إلى الجيزة.
٢- عدم السماح للجند عدا الحراس بدخول القاهرة بسلاحهم.
٣- أن يكون مكان الحانات والمحال المعدة للترفيه عن الجند فى جزيرة الروضة.
٤- عدم فرض ضرائب أو إتاوات.
٥- إعادة المواصلات مع الصعيد.
٦- إمداد قوافل مكة بالحراسة اللازمة [١٦].

يشير الجبرتى إلى أن محمد على قد تمكن وبمهارة من استثمار كل عوامل التنافس، إلا أنه وبمجرد أن سيطر على الموقف كان من الصعب أن يلتزم بشروط تحول دون ممارسته لكافة مسئولياته مما اعتبره الجبرتى خيانة "للعهد" حيث راح

يفرض سلفا على الملتزمين والتجار وكافة الطوائف التى أخذت تستنجد بالسيد عمر مكرم(١٧).

لقد تحدد موقف الجبرتى من محمد على وفقا لمعايير أخلاقية فهو يرى أن ما أصاب أهل مصر يرجع إلى بعدهم عن الشريعة وهو أكثر حزنا حين يرى الأجانب "الأروام العثمانيين" يكلمون الناس باسم الدين وهو يرى أن فى انتقاص الأرزاق فى معظم النواحى ما هو إلا عقابا على ما استحوذ الناس عليه من غير حق. والعدل بمعناه الإسلامى هو الذى يحدد جميع أفكار الجبرتى والقضية كما يتصورها ليست مقصورة على إعطاء كل ذى حق حقه وليست مقصورة على ولاية الكبير على الصغير والقوى على الضعيف والعالم على الجاهل، بل ليست مقصورة على المعاملات فيما يتعلق بالكيل والميزان. بل أن فكرة العدل تشمل كل ذلك فيما أطلق عليه حدود الله بالمعنى الذى يندرج تحته كل حد(١٨).

لقد كان الجبرتى أحد الذين جسدوا فى كتاباتهم ملامح الظلم بمعناه الواسع وكان فى حكمه شديد القسوة على الظالمين الذين أهدروا حقوق الشعب وخصوصا إذا ما كان هذا الظلم من أجانب "أروام" كما سماهم الجبرتى إضافة إلى ما لمسه من اتساع دائرة الظلم التى أخذت تمس الفئة التى ينتمى إليها الجبرتى نفسه والتى مستها الإجراءات الصارمة التى وضعها محمد على بهدف إضعاف كل الفئات التى تقلل من نفوذ الحكومة وهيبتها كالملتزمين وكبار ملاك الأراضى والتجار وأثرياء المشايخ والمماليك، لذا فقد راح الجبرتى يكيل الاتهامات للوالى الجديد بمجرد أن شعر بأن ما اتخذه من إجراءات سوف تنال من حقوق ما أسماهم "مساتير الناس" وأعتقد أن من أهداف محمد على غلق البيوت المفتوحة لأن فى طبعه داء الحقد والطمع والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم.

لم يقدر الجبرتى أهمية مشروعات محمد على التى اعتمدت على كثير من

الإجراءات، التى من بينها إعادة النظر فى الأراضى المعفاة من الضرائب، حيث أعيد مسحها وفرض رسوم عليها مما أثار انزعاج الجبرتى التى أعتبرها سابقة لا مثيل لها، حيث أضرت بمشايخ البلاد وضيقت عليهم معايشهم(١٩).

لقد كان محمد على فى حاجة إلى المال لتنفيذ مشروعاته الطموحة وخصوصا عقب خروج الإنجليز من الإسكندرية ورشيد، حيث راح يعيد تحصين القلاع وإعداد الجند واستصلاح الأرض وشق الترع وكانت حاجة الرجل إلى المال تتجاوز كثيرا مجرد وعد سبق وقطعه على نفسه. لقد أخذ الجبرتى يرصد إجراءات محمد على التى وصلت إلى حد الاستيلاء على خيول الطواحين لجر المدافع والعربات وفرض ضرائب شملت القبانية والحطابة وباعة السمك القديد مما اضطرهم إلى إغلاق حوانيتهم، حيث لجأوا إلى الجامع الأزهر والاستنجاد بشيوخه الذين نجحوا أحيانا فى رفع بعض هذه الغرامات(٢٠).

لم ينتظر الجبرتى كثيرا لكى يحكم على انجازات محمد على وإنما راح ينظر إلى القضية برمتها من منظور واحد شغل حيزا كبيرا من كتاباته يتعلق بما فرض الرجل من ضرائب وما قام به من احتكار لكثير من السلع وأخذ يبنى أحكامه من خلال معاناة الناس دون أن يتعرض للتجربة بمعناها الكبير ولعل المشكلات التى ألمت بالمصريين فى بداية عصر محمد على قد أرهقت الجبرتى وطبعت أحكامه بطابع ضيق دار معظمه حول المظالم. لعل الجبرتى كان لديه ما يبرر أراءه وقسوته على محمد على فالقاهرة عقب خروج الانجليز قد ضاقت بالعسكر الذين سكنوا بيوت الناس عنوة وكافأ الباشا قوادهم وخلع عليهم الهدايا وبالغوا فى التعدى على الناس واغتصاب بيوتهم وتتسع شكايات الجبرتى ، التى شغلت حيزا كبيرا من كتاباته وراح يقدم أدلة تؤكد أن طائفته قد نالها جهالة الجند: " أن كبيرا منهم دخل بطائفته إلى منزل بعض الفقهاء المعتبرين وأمره بالخروج منها ليسكنها هو فأخبره بأنه من مشايخ العلم. فلم يتلفت لقوله "فاستنجد بإخوانه المشايخ وخاطبوا كبيرهم

وعرفوه بأنه دار العالم الكبير وأن النصارى واليهود يكرمون قسيسهم ورهبانهم وانتم أولى لأنكم مسلمون فأجابوهم: أنتم لستم بمسلمين لأنكم كنتم تتمنون تملك النصارى لبلادكم وتقولون أنهم خير منا ونحن مسلمون ومجاهدون – طردنا النصارى وأخرجناهم من بلادكم فنحن أحق بالدور منكم "[٢١]. لقد عنى الجبرتى بأحداث الحملة الإنجليزية على مصر ١٨٠٧ وأخذ يرصد كثيرا من أحداثها ويلاحظ أنه قلل من دور محمد على الذى انزعج بسبب مقدمها لدرجة أنه أرسل يصالح الإنجليز على ما يطلبونه وتلكأ فى مواجهتهم ويؤكد الجبرتى أن محمد على قد ثبت فى يقينه استيلاء الإنجليز على مصر وأن عساكره قد تراجعت وجبنت عن المواجهة بينما العادة من سكان رشيد هم الذين صنعوا الانتصار، الذى فوجئ به محمد على والذى كافأهم بمظالم لا حدود لها لدرجة أنهم قد بعثوا إلى الوالى مهددين بترك دورهم وبلدهم بسبب مطالبه التى أرهقت سكان المدينة[٢٢].

لقد كان انتصار المصريين فى رشيد وإخراج الإنجليز من مصر فى مقدمة العوامل التى وطدت من سلطة محمد على فى وقت باتت البلاد فى حالة من عدم الاستقرار حيث تفاقم نفوذ العسكر وكل طائفة متخوفة من الأخرى : "الأرناؤد فرقتان : فرقة تميل إلى الأتراك وأخرى تميل إلى جنسها. والولاة تميل إلى الأتراك وتكره الأرناؤد والناس فى تخوف من الجميع. ومنهم من يخشى قيام الرعية الخ[٢٣].

لقد اتاح إخراج الإنجليز من مصر فرصة امتداد نفوذ محمد على إلى الإسكندرية، التى لم يكن قد وصلها بعد ونظرا لحالة الفوضى التى راحت تهدد سلطة الوالى الذى أقدم على إلغاء مسموح المشايخ والفقهاء وكافة الأراضى المعفاة من الضرائب[٢٤].

لم يستطع محمد على فى بداية عصره أن يمس مكاسب علماء الأزهر، حيث

أعفوا من كافة الضرائب وكذا من ينتسب إليهم أو يحتمى فيهم وتضاعف نفوذهم عقب نجاحهم فى المجئ بمحمد على ويعبر الجبرتى عن الحالة التى وصلوا إليها قائلا: "لقد اغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء واتخذوا الخدم والمقدميين والأعوان وأجروا الحبس والتعذير والضرب بالفلقة والكرابيج واستخدموا الكتبة من الأقباط وقطاع الجرائم... وصار ديدنهم ذكر الامور الدينوية والإلتزام وحساب الميرى والفائظ والمضاف.... وأوقع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد مع ما جبلوا عليه من الشح والاستجداء والتطلع للأكل فى ولائم الأغنياء والفقراء وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة، المسقطة للعدالة [٢٥].

لقد أدرك محمد على أن تحقيق طموحاته نحو بناء دولة ينفرد بحكمها هو وابناؤه من بعده رهن بإضعاف الفئات سواء التى شاركت فى المجئ به أو التى أضعفت من مركزية الدولة وكان علماء الأزهر فى مقدمة القوى التى شغلت تفكير محمد على فالإجراءات التى استهدفت كافة الطبقات وأهل الحرف الصغيرة قد ضاعفت من شعبية المشايخ الذين استنجد الناس بهم واعتقد المشايخ أن محمد على لن يتبرم من تدخلهم، لذا راحوا يبالغون فى مطالبهم وخصوصا تدخلهم فى مسائل تمس سلطة الدولة.

لقد أخذ الجبرتى يرقب ساسية محمد على من زوايته الخاصة وخصوصا قضايا الميرى والأطيان والالتزام، حيث أقر على كل فدان يروى بماء النيل أربعمائة وخمسين نصفا وفرض على "مساتير الناس" سلفا وأكياسا وعينوا الجند لطلبها وضج الناس بذوى الجاه ولازموا أعتابهم وتصدر الشيخ الشرقاوى لمواجهة الباشا طالبا إليه الترفق بالناس ورفع الظلم عنهم مما أغضب الباشا، الذى أجاب قائلا: "أنا لست بظالم وحدى،وأنتم أظلم منى، فإنى رفعت عن حصتكم الفرد

والمغارم إكراما لكم وأنتم تأخذونها من الفلاحين"[٢٦].

لقد عنى الجبرتى بمظالم محمد على، التى ابتدع لها العديد من المسميات وكان الفلاحون فى مقدمة القوى التى أضيرت من تلك الإجراءات وخصوصا ما عرف "بمال الطين" وعجز الناس عن الوفاء للمطالب التى أرهقت كاهلهم، لذا ترك بعضهم دورهم وأراضيهم وشهدت البلاد أكبر حركة هجرة من مناطق إلى أخرى ومست تلك الإجراءات أكابر الناس، القائمين على الأوقاف الخيرية حيث فرضت مبالغ على الأحباسيات المقررة للمساجد والأسبلة والتكايا وكافة جهات البر والصدقات وأطيان الأوسية والناس يتزاحمون على بيت الشيخ عمر مكرم بينما راح بعض مشايخ الأزهر يتدارسون فيما بينهم نص وثيقة المبايعة التى قبل محمد على العمل بموجبها مما أوغر صدره ضد العلماء وخصوصا عمر مكرم الذى راح يلاحقه بمطالب تتعلق بمظالم اعتقد أنها تجاوزت الحد المعقول.

لعل محمد على أراد أن يختبر موقف العلماء حينما قرر عزل عمر مكرم عن نقابة الأشراف وتعيينه الشيخ السادات بدلا منه وعدم الاكتفاء بذلك بل قرر نفيه إلى دمياط وبدلا من أن يأخذ العملاء موقفا، راحو يطعنون فى ذمة عمر مكرم من خلال وثيقة قدموها إلى محمد على تضمنت العديد من التهم التى مست شرف الرجل وأمانته ومن بينها أنه أدخل فى دفتر الأشراف أسماء بعض من أسلم من القبط واليهود ومنها أنه أخذ من الألفى مبالغ مالية ليمكنه من ملك مصر ومنها اتصاله بالعسكر لينقضوا على الباشا إلخ[٢٧]. وهى تهم لو صح بعضها لكانت سببا معقولا ليس فى نفى الشيخ فقط بل فى قتله.

ويعلن الجبرتى بسخريته المعهوده قائلا: "لقد انعم الباشا على الشيخ المهدى بوظائف السيد عمر ومنها نظارة الامام الشافعى ووقف سنان باشا كل ذلك نظير اجتهاده فى خيانة السيد عمر[٢٨]. لقد اكتشف محمد على أن العلماء لم يهبوا لنصرة

صديقهم، بل راحو يلقون عليه التهم رغبة فى إرضاء الوالى وطمعا فى عطاياه التى كانت أكثر وضوحا فى حالة الشيخ المهدى. لعلها كانت اختبارا عمليا لنفوذ العلماء الذى تبدد بشكل ملحوظ وراح محمد على يمارس سلطاته المطلقة بما فى ذلك فرض ما يشاء من ضرائب ومغارم واحتكار كل أنواع التجارة بما فى ذلك الدخان والنشوق والنطرون والشراب المسكر مثل العرقى وبيعه بالقوة إلى القرى وأعيان البلاد(٢٩).

لقد شعر محمد على أن الاستقلال الاقتصادى يعد المصدر الأساسى فى قوة العلماء وهى القضية التى عنى بها الجبرتى وعدد كثيرا من ملامحها لدرجة أن الباشا راح يتحين الفرص للانقضاض على هذه الامتيازات وإعادة النظر فيها بحجة أن البلاد فى حاجة إلى الأموال(٣٠).

لقد عبر الجبرتى عن مواجهة غير متكافئة بين العلماء ومحمد على، حيث لجأ العلماء إلى "كتخدا" الذى لم يعترف بتميز العلماء الذى لا مبرر له وفى حضور الباشا وجمع من العلماء تصاعدت حدة النقاش لدرجة أن الشيخ الشرقاوى اتهم "كتخدا" بأنه رجل سوء ويعلق الجبرتى بطريقته قائلا: "لعل كلام الكتخدا قد وافق غرض الباشا"(٣١).

لقد أعيد النظر فى أراضى الرزق الموقوفة على المساجد والتكايا والأسبلة وكانت تحت إشراف جمع من العلماء الذين شعروا بأن الدائرة تدور عليهم وعندما احتج العلماء وابدوا غضبهم للكتخدا وأعلموه بأن الضرر سيلحق بالمساجد وإقامة الشعائر، تنصل من كل ذلك وأجابهم :"هذا شيئ أمر به أفندينا".

وعندما يئس العلماء من عدم الاستجابة إلى مطالبهم ورفض تميزهم عن غيرهم يعلق الجبرتى قائلا: :أن الكلام ضائع لأنها حيل ومخادعة" (٣٢).

لقد شعر الجبرتى أن محمد على ابتعد كثيرا عن القوى التى اتت به إلى

الحكم وتنصل من كل عهد قطعه على نفسه وأصبح يمارس سلطته معتمدا على سياسة اتسمت بقدرة من القسوة التى استهدفت حلفاء الأمس لدرجة الإقدام على شنق رجل كحجاج الخضرى وتركه معلقا على أحد الأسبلة على الرغم من مواقف هذا البطل الشعبى فى تدعيم سلطة محمد على. ويقرر الجبرتى بشيئ من المرارة كيف اشتهر حجاج بالإقدام والشجاعة والهمة وكان صاحب صولة وكلمة على قدر من مكارم الأخلاق ولم يأت بجرم يوجب شنقه بل قتل مظلوما(٢٣).

وإذا كان الجبرتى قد كتب كثيرا عما أسماه بمظالم محمد على التى راح يعددها ما بين مظالم أخذت أشكالا متعددة وبين القسوة التى عامل بها خصومه إلا أنه قد لمس شيئا من إنجازاته حينما أشار إلى إخراج الجند من القاهرة وتوزيعهم ناحية البحيرة والنفور ويعلق على ذلك قائلا:" ذلك جزاء فعلتهم" أو حينما اشار إلى بعض مشروعاته فى العمران والتى اثارت اهتمام الجبرتى.

واللافت للنظر أن الجبرتى تناول محمد على من زوايته الخاصة حيث اهتم كثيرا بهزيمة طوسون أمام القوات السلفية وأخذ يفسرها تفسيرا دينيا بحتا ويتساءل قائلا: اين النصر وأكثر العساكر على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهب؟ ولا يسمع آذان ولا تقام فريضة. والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذن وينتظمون صفوفا خلف أمام واحد بخشوع وخضوع. وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف. وينادون فى معسكرهم . هلموا إلى حرب المشركين المحلقين الذقون، المستبحين الزنا واللواط، الشاربين الخمور، التاركين للصلاة وكشفوا عن كثير من القتلى فوجدوهم غلفا غير مختونين"(٢٤).

لقد قدم الجبرتى رؤية تنتقص من استعداد الجند المتأهبين لملاقاة السلفية وفسر هزائم طوسون تفسيرات تتفق وثقافته لكن حينما حقق نفس الجند انتصاراتها ضد نفس العدو امتنع عن تقديم مبررات لهذا النصر.

ووفقا لثقافة الجبرتى ورؤيته التى اتسمت بقدر من التعصب أحيانا فقد أخذ يمتدح سياسة محمد على لأنه ألزم الأقباط بارتداء زى خاص بهم ومنعهم من ركوب الخيل والبغال معتقدا بأن الشريعة الإسلامية بها ما يفسر هذا الإجراء(٣٥). وهى رؤية تنم عن قصور ملحوظ فى ثقافة الرجل الذى حدد موقفه من سياسة محمد على وفقا لما تصور أنه يتفق مع الشريعة الإسلامية أو تناقض معها بينما الرجل يغفل رأى الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بتميز العلماء على غيرهم وحصولهم على مكاسب وحقوق دون بقية طوائف المجتمع لدرجة أن غيرة الرجل على الانتقاص من هذه الحقوق كانت لا تقل عن غيرته على الانتقاص من الشريعة نفسها.

لقد أخذ الجبرتى يرصد كثيرا من المتغيرات التى نجمت عن إجراءات محمد على وخصوصا ما يتعلق منها بتسويق الحاصلات الزراعية التى نجح الباشا فى بيعها إلى الدول الأجنبية بسعر زاد عن المائة قرش للإردب بعد أن كان ثمنه لا يتعدى ثمانية قروش ولما كان الباشا قد احتكر كل شئ لنفسه فقد كان يشترى الإردب من الفلاحين بثمانية قروش مع إلزام الفلاحين بنقل محاصيلهم إلى أماكن حددت خصيصا(٣٦).

ويتابع الجبرتى مشروع محمد على فى ضبط الأراضى والاقطاعات الخاصة بالملتزمين والتى اعتبرها خرابا على البلاد والعباد وخصوصا فى الصعيد عقب تولية ابراهيم باشا أميرا عليه وحيث أخذ الناس يتعللون بأن هؤلاء الملتزمين يطعمون الطعام ويعمرون المساجد. ويعلق الجبرتى على هذه الإجراءات قائلا:"لقد أذل أعزة أهله وأساء أسوأ السوء معهم فسلب نعمهم وأموالهم وحاسبهم على ما كان من تصرفهم وأجرى عليهم الضرب والتعليق والكى بالنار. وأخذ الجبرتى يتهم إبراهيم باشا بأنه لم يتخلق بأخلاق ولم يرتدع بدين الخ(٣٦).

لقد ابدى الجبرتى تعاطفا كبيرا مع الملتزمين الذين اعتقد أنهم أضيروا ظلما

فى أرزاقهم بينما لم ينظر تفس النظرة إلى الفلاحين المعدمين حينما أخذوا يظهرون شيئا من الشماتة فيما آل إليه مصير هؤلاء الملتزمين بعد أن جردوا من التزاماتهم وراحوا يرددون فيما بينهم . نحن فلاحى الباشا . يضيف الجبرتى قائلا : " لقد كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد وقد سلط الله على هؤلاء الفلاحين بسوء أفعالهم وعدم ديانتهم وخيانتهم واضرار اهم لبعضهم البعض كما قال فيهم البدرى الحجازى :

سبعة بالفلح قد انزلت ... لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم، استاذهم، والمشد ... والقتل فيما بينهم والقتال
مع النصارى كاشف الناحية ... وزد عليها كدهم في اشتغال
وفقرهم ما بين عينيهم ... مع أسوداء الوجه ... هذا النكال

وإذا التزم بهم ذو رحمة ازدروه فى أعينهم واستهانوا به وما طلوا فى الخراج وسموه بأسماء النساء وتمنوا زوال التزامه بهم وولاية غيره من الجبارين [٣٧] لم تكن نظرة الجبرتى إلى الفلاح المصرى تختلف كثيرا عن نظرة المملوكى أو الملتزم وهى لا تختلف عن نظرة صاحب هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ـ لذلك تأسى لأنهم رفضوا ـ العمل لحساب الملتزمين، وقال أن كل ملتزم كان لا يجد من يطيعه منهم وتطاول الفلاحون عليهم بالألسنة فيقول الحرفوش منهم إذا دعى للشغل : " روح انظر غيرى " انتم لم يبقى لكم فى البلد فقد انقضت أيامكم، احنا صرنا فلاحين الباشا. ويضيف قائلا : لقد كانوا من الملتزمين أذل من العبيد " وقد سلط الله علي هؤلاء الفلاحين سوء أفعالهم وعدم ديانتهم وخيانتهم [٣٨] .

أما فى المدن فإن حكم الجبرتى لم يختلف كثيرا ، حيث وصف العامة بأنهم "أوباش" و زعر" و "حرافيش" لذا فإن تقييمه لتجربة محمد على تجاوز هؤلاء العامة فلا يتناولهم غالبا إلا بالسخرية باعتبارهم موطن كل شر على الرغم من أنهم

كانوا بالقوة الضاربة وراء كل عمل اقتصادى وعندما يتعرض لارتفاع الأسعار التى ارهقت "مساتير الناس" لا يقترب من أثر هذه الزيادة على العامة، التى لم تعد الأسعار تتناسب ودخولهم الحقيقية.

ويؤكد الجبرتى أن الأسعار ارتفعت بسبب سياسات محمد على وخصوصا تحديد الأسعار التى نجم عنها حجب السلع عن الأسواق وبيعها بعيدا عن أعين رجالات محمد على بأسعار تجاوزت كل حد معقول وامتدت زيادة الأسعار إلى حصص الالتزام والجمارك لدرجة أن ديوان بولاق "الجمرك" تزايد عليه المتزايدون حتى أوصله إلى خمسمائة كيس فى السنة بعد أن كان عائده ثلاثين كيسا وقدرت الجمارك بعشر القيمة وبذلك ارتفعت الأسعار وأقبل نصارى القبط والشوام على أخذ حصص الجمارك.

ويتعجب الجبرتى من أن بضائع المسلمين يؤخذ عشرها وبضائع الافرنج والنصارى ومن إليهم يؤخذ عليها اثنان ونصف فى المائة فقط(٣٩).

لقد أخذ الجبرتى يسئ الظن بكل انجازات محمد على الذى راح يجرى العديد من الإصلاحات التى تتعلق بمسح الأرض وتقدير عائدها وفقا لبيانات اثبتت تجاوزات الملتزمين والمشايخ مما دفع بآلاف الفلاحين إلى النزوح إلى القاهرة وتقديم شكاياتهم مما أحدث ارتباكا شديدا أسماه الجبرتى "ديوان الفتنة" ومبالغة فى سوء الظن يعتبر أن كل هذه الإجراءات لا تهدف إلا إلى الاستيلاء والاستحواذ على مال الغير وقطع المنافع وضرب هذا بذاك بهدف إنتزاع ما فى أيدى الناس(٤٠).

لعل مما يلفت النظر أن الجبرتى بعد مرور عشر سنوات من تعيين محمد على واليا قد أغفل تماما كل إصلاحاته وأخذ برصد الأحداث من وجهة نظره مؤكدا أن الناس كاوا يموتون عطشا بسبب الاستيلاء على حميرهم للسخرة والرجال لخدمة العسكر المسافرين إلى الحجاز وغلاء ثمن القرب، التى استولى عليها الباشا

وارتضى أسعارها حتى بيعت القربة الواحدة، التى كان ثمنها مائة وخمسين نصفا بألف وخمسمائة نصف[٤١]. ووقف العسكر فى الطرق يرصدون مرور السقائين وامتدة قسوة الباشا لدرجة أنه أخذ القبانين والخبازين وأرباب البضائع والحرف ومن تخلف منهم أوقع نفسه هدفا للعسكر الذين قاموا بتعقبهم مما نجم عنه وقوع فوضى عارمة[٤٢].

لقد عنى الجبرتى بكثير من السلبيات التى اعتقد أنها تجاوزت كل حد لدرجة تدهور حالة القضاء، حيث أبطل العمل بكافة المذاهب ما عدا المذهب الحنفى، الذى تصدر القضاء به اتراك جئ بهم من العاصمة العثمانية فى قضايا المواريث والتركات وغير ذلك وعلى الرغم من عناية الجبرتى بكثير من السلبيات إلا أنه فى أحيان قليلة كان يشيد بمحمد.على وخصوصا عندما أنشأ مدرسة المهندسخانة بعد أن تأكد أنه فىأولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف[٤٣].

لقد كانت عناية محمد على بإعمار مدينة الاسكندرية وثغورها ومبانيها من أهم ما لفت نظر الجبرتى لدرجة أنه تمنى لو أن الرجل قد اتسم بشئ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير لكان أعجوبة زمانه[٤٤].

وعلى ضوء كل ما سبق يمكن أن نقرر عدة نتائج :

أولها: تتضمن كتابات الجبرتى الكثير من ملامح العصر العثمانى : الذى عصفت به الكثير من العوامل التى تعرضت لها مصر مع نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر وعلى الرغم مما يبدو من أن الجبرتى قد تأثر كثيرا بأحداث الحملة الفرنسية إلا أن ثقافته الدينية المحافظة قد انعكست على كثير من آرائه فى محمد على.

ثانيها : لقد حكمت رؤية الجبرتى اعتبارات شخصية حيث شغلت قضايا الضرائب

والالتزام والمغارم التى ألمت بطبقته مساحة كبيرة فى كتاباته ومن ثم فقد تحدد موقفه ورؤيته وفقا لهذه القضايا، لذا فإن أحكامه فى كثير منها اتسمت بقدر من المحدودية والتى أخرجته عن دائرة الموضوعية، حيث لم يُعن بنفس القدْر بالمنجازات التى أخذ محمد على يوجه كل إمكانات مصر بهدف تحقيقها.

ثالثها : لقد لمس الجبرتى قضايا على درجة كبيرة من الأهمية، لعل قضية البيعة، التى أجمع عليها العلماء والتى اختاروا محمد على بموجبها تعد من أهم ما تناوله الجبرتى، حيث عادوا بعد أقل من عشر سنوات يناقشون شروط هذه البيعة وموقعها فى الفقه الإسلامى وعما إذا كان محمد على قد تجاوزها مما يوجب عزله مما كان سبباً أساسياً لاتساع دائرة الخلاف مع العلماء الذين راح ينكل بهم واحداً بعد الآخر.

رابعاً: لم تحظ شخصية العامة من أبناء البلد بالأهمية التى تتناسب ودورهم فى المجتمع المصرى، حيث لم تتعرض لهم إلا من باب السخرية والاستهزاء وقد اتسمت أحكامه على الفلاحين بقدر من القسوة تنم عن نظرة دونية لهؤلاء الفقراء الذين تحملوا العبء الأكبر دون أن تتوفر لهم أية حقوق حتى حينما اتاح لهم محمد على حق الشكوى من الملتزمين راح الجبرتى يكيل لهم الاتهامات واصفاً إياهم بالجهل والخيانة وهى أحكام افتقدت إلى معنى العدالة، التى كثيراً ما رددها الجبرتى وكانت سبباً فى أحكامه القاسية على كثير من إجراءات محمد على.

خامساً : لقد تناول الجبرتى تجربة محمد على على طريقة ولا تقربوا الصلاة دون أن يكمل بقية الآية حيث حمل على عصر محمد على على اعتبار أنه تسبب فى إرهاق "مساتير الناس" بينما لم يقيم التجربة بمعناها المتسع من خلال برنامج شمل كل مناحى الحياة ابتداء بالتعليم وانتهاء بالزراعة والصناعة

ولعل الجبرتى بحكم أنه قد توقف عن الكتابة فى بداية العقد الثالث، لذا فلم يتح له أن يعايش التجربة فى مراحل نجاحها.

سادسها: لقد فسر الجبرتى الكثير من القضايا تفسيراً دينياً، حيث أخذ يقارن بين جيش طوسون وهو يحارب فى الجزيرة العربية وبين جيش السلفيين وإرجع الهزائم التى ألمت بالجيش المصرى لأسباب دينية خالصة بينما لم تحظ الانتصارات بنفس التفسيرات التى عول عليها كثيراً لدرجة أنه راح يشيد بمحمد على حينما ألزم الأقباط بزى خاص بهم ومنعهم من ركوب الخيل والبغال معتقداً بأن الشريعة الإسلامية بها ما يفسر هذه الإجراءات.

إضافة إلى كل ذلك فإننا لا نستطيع أن ننكر أن الجبرتى قد أشاد بكثير من منجزات محمد على مؤكداً على شهامته وإقدامه لولا أنه به قدر من الجور والظلم وعموماً فإن تجربة محمد على فيما كتبه الجبرتى تعد على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تعد وبحق نقطة تحول أو منعطف طريق بكل ما تعنى التجربة من إنجازات وهزائم.

المصادر والمراجع

(١) محمد شفيق غربال – عبد الرحمن الجبرتى دراسات وبحوث ص٩، القاهرة ١٩٧٤.

(٢) المختار من تاريخ الجبرتى، مطابع الشعب، ص٢٣٢، القاهرة ١٩٥٨.

(٣) نفس المصدر السابق ، ص٢٣٢.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٨.

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٢٠.

(٧) صلاح عيسى، منهج عبد الرحمن الجبرتى فى رؤية الظواهر التاريخية "ضمن كتاب عبد الرحمن الجبرتى" ص ١٤٧.

(٨) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (الجبرتى) جـ٢ ، ص٣٤٤ دار الجيل بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٨.

(٩) نفس المصدر السابق جـ٢ ، ص٢٧٩.

(١٠) نفس المصدر السابق جـ ٣ ، ص٢١٩.

(١١) المختار من تاريخ الجبرتى، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢٥.

(١٢) نفس المصدر السابق ، ص٦٢٨.

(١٣) نفس المصدر السابق ، ص٦٢٨،٦٢٩.

(١٤) نفس المصدر السابق.

(١٥) د. محمد فؤاد شكرى، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١-١٨١١ طـ، ص٣٢١ ، القاهرة ١٩٥٨.

(١٦) نفس المرجع السابق ، ص٣١٢

(١٧) المختار من تاريخ الجبرتى ، مصدر سبق ذكره، ص٦٧٠.

(١٨) احمد خاتى، الجبرتى ومحمد على، "عبد الرحمن الجبرتى" ، مرجع سبق ذكره، ص ٦٧٠.

(١٩) المختار من تاريخ الجبرتى ، ص٧٣٣.

(٢٠) نفس المصدر السابق ، ص٧٥٣.

(٢١) نفس المصدر السابق ، ص٧٤١.

(٢٢) نفس المصدر السابق ، ص٧٢٣.

(٢٣) نفس المصدر السابق ، ص٧٤٤.

(٢٤) نفس المصدر السابق ، ص٧٤١،٧٤٢.

(٢٥) نفس المصدر السابق ، ص٧٤٢.

(٢٦) نفس المصدر السابق ، ص٧٨٢.

(٢٧) نفس المصدر السابق ، ص٧٧٨.

(٢٨) نفس المصدر السابق ، ص٧٧٧.

(٢٩) نفس المصدر السابق ، ص٤٠٨.

(٣٠) نفس المصدر السابق ، ص٩٢٥.

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص٩٨٢.

(٣٢) نفس المصدر السابق ، ص٩٩٣.

(٣٣) نفس المصدر السابق ، ص٨٠٥.

(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص٨٤١.

(٣٥) نفس المصدر السابق ، ص٦٤٦، ٩٤٧.

obeikan.com

(٣٦) نفس المصدر السابق ، ص٨٢٣.

(٣٧) نفس المصدر السابق ، ص٨٧٤.

(٣٨) نفس المصدر السابق ، ص٩٠١.

(٣٩) صلاح عيسى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٩٠.

(٤٠) المختار من تاريخ الجبرتى ، ص ٩٤٦.

(٤١) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٨٣.

(٤٢) نفس المصدر السابق ، ص٣٥٧، ٣٥٨.

(٤٣) نفس المصدر السابق ، ص٥٢٣، ص٥٢٤.

(٤٤) نفس المصدر السابق ، ص٥٢٨.

obeikan.com